قصيدة البُردة للإمام البُوصيريّ: تحليل نقدي

د. محمد إرشاد الحق*

توطئة

لقد ظهر المديح النبوي مع مولد النبيﷺ وانتشر مع انتشار دعوته النبوية وامتداد الفتوحات الإسلامية، ومن أهم خصائصه أنه شعر ديني ينبثق من رؤية إسلامية مع التركيز على مدح رسول الله محمد بن عبد الله بتعداد صفاته الخُلُقية والخَلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته والأماكن المرتبطة بحياته، تطبعه الروحانية الصوفية، ويتميز هذا النوع من الأدب بصدق العواطف والمشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب النبي محمد بن عبد الله ﷺ، و هذا النوع الأدبي لم يزدهر ويترك بصماته إلا مع الشعراء المتأخرين، خاصة مع الشاعر البوصيري في القرن السابع الهجري، ففي هذه المقالة حاولت ان اتناول بعض أبرز المزايا والملامح المتواجدة فى القصيدة المذكورة معتمدا على المنهج النقدي الإنطباعي

حياته بين السطور

هو محمد بن سعيد بن حماد بن تحسن بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي، البوصيري المصري المكني بأبي عبد الله، والملقب بشرف الدين ولد يوم الثلاثاء سنة ٢٠٨ هـ بقرية دلاص، كانت أمه من دلاص وأبوه من بوصير، ولذلك اشتهر بالبوصيري نسبة لمكان ولادته، وتوفي فى سنة ٦٩٥ هـ بالمارستان "المستشفى" المنصوري من القاهرة، ولقد كان للنشأة التي عاشها

* الأستاذ المساعد بكلية النساء، سرينغر

الإمام البوصيري أثرها الكبير في شخصيته، فقد حفظ القرآن الكريم و درس العلوم الدينية و اللغوية والسيرة النبوية في المساجد، كان جيّاش العاطفة في محبته للرسول،[١] صادق الإيمان، قوي اليقين؛ تغنّى بجمال النّبي صلى الله عليه وصلّم وبحبه في خشوع وتوسّل، اشتهر بين حلقات أدبية بسبب قصيدته المعروفة التي نسجها على منوال بردة كعب بن زهير فى مدح الرسول صلي الله عليه وسلم.

تسمية القصيدة بالبُردة:

هناك عدة أقوال لتسميتها "البردة" منها: الأوّل، قيل: إنه سماها "البردة" لاشتمالها على مناقب الرسول، و بهذا قد قصد المعنى المجازي.[٢] والثانى، قيل كأنه شبه قصيدة (البردة) لكعب بن زهير والتى مطلعها.

بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيمٌ إثرها، لْم يُفدَ مكبُولُ

حيث أراد البوصيري أن تكون له قصيدة تحمل اسم قصيدة كعب وذلك من باب التبرك بها. والثالث، قيل للبردة اسم آخر و هو "البراءة" أي الشفاء، مرض البوصيري مرضاً شديداً - قد أصابه الشلل، ثم دعا الله وتوسل أن يشفيه، رأى أحسن طريقة أن يمدح الرسول صلى الله عليه وصلّم بقصيدة يذكر فيها محاسن الرسول فقرض هذه القصيدة، و نام ثم رأى فى المنام أن رسول الله صلى الله عليه وصلّم يمسح بيده المباركة على وجهه و ألقى عليه الرسول صلى الله عليه وصلّم البردة فى المنام، فقام سليماً و معافياً و شفي من مرضه.

قسّم الدارسون قصيدة البردة إلى عشرة أجزاء والموضوعات الهامة التى تتناول هذه الأجزاء علي نحو: النسيب، التحذير من هوى النفوس، مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وصلّم، مولده، معجزاته، القرآن الكريم.، الإسراء و المعراج، جهاد الرسول و غزواته، التوسل و التشفع، المناجاة و التضرع. وعدد

أبيات البردة مائة واثنان وستون بيتاً، قد زاد بعضهم بعض الأبيات في المقدمة وفي الخاتمة.

تحليل نقديّ

لقد أسهمت البردة فى خلق فن جديد فى مدح النبى صلى الله عليه وصلّم وظهر ما يسمّى بالبديعيات، وهي قصائد غرضها مدح الرسول صلى الله عليه وصلّم وكان من شروطها أن تكون قافيتها على حرف الميم وأن تحتوي على أكبر قدر من فن البديع والزخرفة اللفظية فتشمل جميع فنون البديع من جناس وسجع ولف ونشر وطباق ومقابلة وتوريه وترصيع وتصريع وبراعة استهلال، وحسن مقطع، والتكرار واختيار الألفاظ القوية الجزلة.

إن أفكار قصيدة البردة مستمدة من معارف الشاعر ومن ثقافته وبيئته العربيّة والإسلامية وبعض الأفكار تقليدية كالغزل والوقوف على الأطلال وغيرها، وكذلك موسيقى القصيدة الداخلية والخارجية ناجحة والتي تساعد القصيدة على تناغم الجمل والمفردات، وهي موسيقى هادئة توحي بمدى ما يفيض على قلب الشاعر من حب واحترام للرسول، ولقد نوّع البوصيري الأسلوب ما بين خبر وإنشاء، وتقديم وتأخير، وأكثر من الجمل الفعلية وابتعد عن الجمل الاعتراضية، مطبقاً بمهارة عالية حُسْنَ تنوع الأسلوب الممتزج بالعاطفة الجيّاشة المعبرة عن شدة الحّب والاحترام للرسول صلى الله عليه وصلّم، وكذلك امتاز البوصيري في مدائحه بقوة الأسلوب وحسن الصياغة، وجودة المعاني، وجمال التشبيهات، وروعة الصور[٣] انظر إلى قوله:

هَالكَ مِن صُنعَةِ القَرِيضِ بُرُودًا : لَكَ لَم تُحَك وَشِيهًا صَنعَاءُ

نزعة صوفية

لقد عبّرت بعض أبيات البُردة عن بعض المعاني الصّوفيّة مثل:

١- إن الرسول صلى الله عليه وصلّم إنسان كامل بالمعني الصّوفي:

محمّدٌ سيد الكونينِ والثقَلَيْنِ : والفريقين مِن عُربٍ ومِن عَجَمِ

٢- بيان حقيقة النّور المحمديّ الأزلي :

وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرَام بِهَا : فإنما اتصَلَتْ مِن نورِهِ بِهِمِ
فإنَّهُ شمسُ فَضْلٍ هُم كواكِبُهَا : يُظهِرْنَ أنوارَهَا للنّاسِ في الظُّلَمِ

٣- سيّدنا محمد هو صاحب الشفاعة و سيد الكونين:

هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ : لكُلِّ هَوْلٍ مِن الأهوالِ مُقتَحَمِ

٤- مولد الرسول صلى الله عليه وصلّم :

أبانَ مولِدُهُ عن طِيبِ عنصُرِهِ : يا طِيبَ مُبتَدَإ منه ومُختَتَمِ

٥- معجزات النبي صلى الله عليه وصلّم تأييداً للدعوة الإسلامية:

جاءت لِدَعوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً : تمشِي إليه على ساقٍ بلا قَدَمِ

٦- الحقيقة الروحيّة المحمّدية .

لا طيبَ يَعدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أعظُمَهُ : طوبى لمُنتَشِقٍ منه وملتَثِمِ

٧- تفوق النبيّ صلى الله عليه وصلّم على غيره من الخَلق والرّسل خَلْقاً، وخُلُقاً ،وعِلماً، وكرماً:

فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ : ولم يُدَانُوهُ في عِلمٍ ولا كَرَمِ

وفي هذا يذكر د. محمد زغلول سلام "وظهرت الصّوفيّة ظهوراً قوياً في الجزء الأخير من البردة حيث يتوسل بالرّسول[٤]

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُبه : سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ
ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بي : إذا الكريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ
يا نَفْسُ لا تَقنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ : إنَّ الكَبَائِرَ في الغُفرَانِ كالَّلمَمِ
لعَلَّ رَحمَةَ رَبِّي حينَ يَقسِمُهَا : تَأتِي على حَسَبِ العِصيَانِ في القِسَمِ

نزعة تربوية:

فلا تَرُمْ بالمعاصي كَسْرَ شهوَتهَ : اِنَّ الطعامَ يُقوّي شهوةَ النَّهِمِ
والنَّفسُ كَالطّفلِ إنْ تُهمِلْه شَبَّ عَلَى: حُبِّ الرّضَاع وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِم

لقد فطن الإمام البوصيري إلى ملامح تربوية تتمثّل في ضرورة ترويض

وتهذيب النفس وتربيتها على الفضائل منذ الصغر وكسر شهوتها حيثُ في تشبيه رائع صوّر لنا أن النفس كالطفل تماماً تحتاج إلى ترويض تربويّ وعناية كاملة منذ الصغر فالنفس مثل الطفل، إن تتركه بدون رعاية وتوجيه صحيح ينشأ فاسداً فلابدّ من الرعاية والتوجيه والإرشاد وهذه حقيقة تربوية .

يقول الدكتور أحمد عمر هاشم حول القصيدة المذكورة نحو :

"وكانت أعظم قصائده وأروع فرائده درة الشّعر الفصيح بُردة المديح التي لم يشبهها سابق، ولم يقترب منها لاحق، وكم قصائد أُلِّفتْ على غرارها ونهجت طريقها، ونسجت على منوالها، ولكنها لم تصل إلى رتبة بردة البوصيري"(٥)

وجدير بالإشارة إلى معارضات الشّعراء للبردة؛ فلقد عارضَ البُردة وشطّرها وشرحها ونسج على منوالها الكثير من الشّعراء الذين جاءوا بعد البوصيريّ في العصور المختلفة حتى العصر الحديث اقتداءاً به نظراً لسمو عاطفتها وروعة معانيها فهي بمثابة نغم علوي يشدو به المحبون الأتقياء تعبيراً عن شدة الحبّ للرّسول صلى الله عليه وصلّم حيث بلغتْ شروحها أكثر من ٢٠ شرحاً ولها عدة معارضات أشهرها معارضة أمير الشّعراء أحمد شوقي في " نهج البُردة" حيثُ قال:

ريمٌ على القاع بين البان والعلَمِ : أَحَلَّ سفْك دمي في الأشهرِ الحُرمِ

وهذا الاهتمام بالبردة يدلنا على أن البوصيريّ كان متفوقاً على غيره من الشّعراء من حيث الشّاعريّة والاستعداد الطبيعيّ لقول الشّعر فلديه طبع متدفق للإبداع الشّعريّ يتقن الصنعة والصناعة الشعريّة ليصل إلى أعلى درجات الإتقان والكمال مما لفت الآخرين باتباعه وتقليده .

خاتمة

و فى الختام يمكن لنا أن نقول أنه لم يحظَ نصٌّ شعريّ أو نثريّ في تاريخ الأدب العربيّ على مرّ عصوره الممتدة من العهد الجاهليّ حتى العصر الحديث

بالاهتمام على جميع المستويات الرّسمي أو الشّعبي أو الأكاديميّ بمثل ما حظيت به بُردة الإمام البوصيري لما تغنّى بها المنشدون وعارضها الشعراء وتفنن في شرحها الكُتّاب، وتبارى الخطاطون في كتابتها بجميع الخطوط و القُصاص في روايتها و الطلاب والباحثون تسابقوا لدراستها وكذا لم تسلمْ من نقد النقاد وتقوّل المعرضين والنقاد، لكنها مازالت بسحرها تستولي على القلوب والأفئدة وتخلبُ لبَّ العارفين وأهل الوجد والذوق حتى جميع الأوساط العلمية والأدبية والدينية.

هوامش المراجع والمصادر:

١. بردة المديح المباركة، د. أحمد عمر هاشم، دار المقطم، القاهرة ١٩٩٥م، ص٧
٢. البردة: د أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٤
٣. البوصيري، شاعر المدائح النبوية وعلمها، د. على نجيب العطوى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م، ص١٨٦
٤. انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٢٧٣
٥. بردة المديح المباركة، د. أحمد عمر هاشم، دار المقطم، القاهرة ١٩٩٥م، ص٧

* * *